عفة ووفاء

رواية حقيقية حدثت في هذا العام

يظن بعض الناس ان الفضائل قد مضت انصارها وعفت اخبارها ولم يبق الا آثارها

ولكن الله الناس لم يخل هذا الكون منها منذ خلقه الى الان. فالفضائل ن كانت عند قوم وذهبت منهم فقد انتقلت الى غيرهم . ولعل هذا هو السر في تقلب الامم وتغير الدول بارتفاع بعضها وسقوط بعضها

وانما الامم الاخلاق ما بقيت فان هم ذهبت اخلاقهم ذهبوا

هذه مقدمة صغيرة لان اسوق الى القراء الكرام حديث اثنين مثلا العفة في اجلى مجاليها والوفاء في اجمل مظاهره

***

في احدى مدن الوجه البحري من القطر المصري الان اسرة شريفة من الاسرات العثمانية الاسلامية . ادبها التهذيب العثماني وهذبها الادب الاسلامي فانتجت هذه الاسرة درة كريمة يتيمة لا من ابويها جمع الخالق جل جلاله في هذه الفتاة جمال الخلق وكمال الخلق وعزة النفس ولطف الروح وشرف الفؤاد ونقاء السيرة وطهارة السريرة وحسن العواطف

***

نظرت هذه الفتاة وليتها ما نظرت (ولم هذا التمني وكل شيء كائن بقضاء لا يرد وقدر لا يدفع) نظرت من نافذة البيت لانها مصونة محجبة

من ذوات الخدور وربات الستور فرأت فتى جميلاً مهذبا نبيلاً وكأن روحيهما كانا اخوين او كأنهما كما قال عبدالله ورسوله الصادق الامين « الارواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف »

***

عشقها وعشقته من اول هذه النظرة التي خطرت في قلبيهما ايما خطر ثم كانت سبب الحسرة وهذه الذكرى

كتمت حبها حتى عنه وكتم حبه حتى عنها ولكن كتمان الحب صعب وان الحب محمله شديد

بُح بها الحب ولم تبح به الا اليه ولكن بعد ثلاث سنين غالبت فيها فغلبها الحب وفاز عليها وانتصر بالحجة والبرهان فكأنه يقول ما في الحب غير الشرف والسعادة اذا كان متبادلاً صافياً طاهراً نقياً مبنياً على العفاف مؤسساً على التقوى

***

بلغ منها العشق مبلغاً ملأ منها مكامن النفس ومواطن الحس فلم يبق عندها للاحتمال مجال ولا للصبر ممر بل كلما مر عليها الصبر مر

***

فكاشفت من تهوى بامرها وباحت اليه بسرها . وشافهته والحياء يمنعها والحب يدفعها فاقترحت عليه ان يخطبها للزواج من ابيها بواسطة لديه فلم ينجح . فاوحت اليه ان يخطبها من امها بواسطة امه فلم يفلح .

فالتجأت الى النظر في هذا الامر الا امر نظرة اخرى وفكرت فيه فكرة تارة حلوة وتارة مرة

***

اذا كان من يهوى يكاتم حبه لشدة ما يلقاه مات من الغم

بعد زمن يسير زار هذه الاسرة بعض صاحباتها فبعد ان شربن القهوة من صنع هذه الفتاة رأوها مقبلة عليهم والنار تأكل في ثيابها وجسمها ولم يكن احق بهذه النار غير من سبب اشتعالها في هذا الجسم النقي الطاهر فهمت والدتها لتنقذها مما هي فيه (وقد اشفقت عليها الان ولم تعرف ان تشفق عليها قبل ذلك في وقت كانت فيه هذه الفتاة احوج الى الشفقة) فابتعدت عن والدتها وقالت لها لا تفعلي فاني اخشى عليك النار اذا لامستني ولكن الشفقة الوالدية اقامتها لتنقذ ابنتها فافلتت منها واسقطت نفسها تخلصاً من والدتها فسقطت من تلك النافذة التي صوبت الى قلبها سهاما من الحب كانت فيها نافذة

وصلت الى الارض وهي بين الموت والحياة وان كانت الى الاول اقرب واظن القارىء صار في غنى عن تصوير هذا المنظر المؤثر بما يستمطر العبرات ويصعد الزفرات ويعظم الحسرات اسفاً على هذه الروح الشريفة والنفس العفيفة

***

سألوها لم هذا وكيف حملت نفسك هذه الآلام فقالت فعلته مختارة مضطرة وتحملت هذه الآلام لانها اخف من آلام الضمير وتعذيب الوجدان لو تركت نفسي تغالبها عواطف القلب وهواجس النفس وخفت

ان تتغلب علي فتضطرني الى ما يبعدني عن رضى الوالدين اذا خرجت عن طاعتهما . ومنعها الحياء والادب من ان تبوح بحبها وها هي من جراء ذلك ستقضي نحبها

***

حملوها الى المستشفى وقد بلغ الخبر المسامع فشغل القلوب هذا الفاجع ثم حضر حبيبها فزاد نحيبها فلما رآها على تلك الحال لم تقو رجلاه على حمل جسمه فلم يستطع الا ان جثا على ركبتيه امامها . فتبادلا النظرات وتقاسما الزفرات وتشاطرا العبرات ثم خر مغشياً عليه فحركوهما فاذا هما ميتان فلا حول ولا قوة الا بالله

***

فاضت نفساهما في نفس واحد فذهبت روحاهما تشكوان قسوة هذا العالم الانساني الى رحمة العالم الروحاني . وكأنهما ارادا الافتراق بعيداً عن بني الانسان في دار القرار

حسين الجمل
معاون بالبوستة
ببورسعيد